أمثالهم، وهى إذا كان الخطاب عند تدبيره يفهم بها العارفون أذكارهم، فيكون توبيخ اللّه عز وجل للغافلين بعزائم كلامه وغليظ خطابه أشد عليهم وأوجع لهم من أليم عقابه، وذلك أن اللّه تعالى استخلص الدين لنفسه ولم يشرك فيه أحدا من خلقه، فقال ألاَ للّه الدين الخالص، يعنى الطريق الموحد غير المشترك الصافى غير الكدر، لأن الإخلاص التصفية من أكدار الهوى والشهوة، وضده الشرك وهو الخلط بغيره من النفس والناس، كما أنعم علينا بالرزق الخالص من بين الفرث والدم فتمت به النعمة، فقال نسقيكم مما فى بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا، فلو وُجِدَ فيه خلط من أحدهما لم تتم به النعمة علينا، فكذلك ينبغى أن يكون عملنا له خالصا من الهوى والشَهوة لنستحق به الأجر والحظوة منه، مع القيام بواجب الحق علينا، فكما أنّا لو رأينا فى اللبن الذى أنعم به علينا فرثاً أو دماً عافته أنفسنا فلم نأكله، فكذلك الحكيم الخبير إذا رأى فى عملنا خلطا من رياء أو شهوة رده علينا فلم يقبله. وكما عمل لنا مما عملت يده بقدرته أنعاما ذلّلها لنا، منها ركوبنا ومأكلنا، فينبغى أن نشكره فنعمل له بعد الأكل عملا صالحا كما أمرنا بعد إذ أنعم اللّه علينا، فقال كلوا من الطيبات واعملوا صالحا - فمن جهل ما جعل اللّه لنفسه وترك ما أمر به من الإخلاص بالدين لوجهه استوجب المقت لجهله، واستحق العقاب لمخالفته. وفى تدبر ما قلناه الهرب من الخلق والبكاء على النفس، إلى لقاء الحق لمن أشهد ووقف وأريد بالحضور فلم يصرف.

الفصل الرابع والعشرون

فى ذكر ماهية الورد للمريد، ووصف حال العارف بالمزيد

إعلم أن الوِرْد اسم لوقت من ليل أونهار يرد على العبد مكرراً فيقطعه فى قُربة إلى اللّه ويورد فيه محبوبا يرد عليه فى الآخرة. والقُربة اسم لأحد معنيين، أمْرٌ فرض عليه أو فضْلٌ ندب إليه، فإذا فعل ذلك فى وقت من ليل أونهار وداوم عليه فهو ورد قدّمه يرد عليه غدا إذا قَدِم.

وأيسر الأوراد صلاة أربع ركعات أو قراءة سورة من المثانى أو سَعْىٌ فى معاونةٍ على بر أو تقوى. قال أنس بن سيرين كان لمحمد بن سيرين فى كل ليلة سبعة أوراد فكان إذا فاته منها شئ قضاه بالنهار فسمى العمل الموظف المؤقت وردا. وقال المعتمر بن سايمان ذهبت أُلقّن أبى عند الموت فأومأ إلى بيده دعنى فإنى فى وردى الرابع، فسمى الحزب من أحزاب القرآن لوقت ما ورد، فمن العمّال من كان يجعل الأوراد من أجزاء القرآن، ومنهم من كان يجعله من أعداد الركوع، وفوق هؤلاء من العلماء كانوا يجعلون الأوراد من أوقات الليل والنهار، فإن قطع الوقت بآية أو ركعة أو فكرة أو شهادة فذاك ورده.

وأما العارفون فإنهم لم يُوَقتّوا الأوراد ولم يُقَسّموا الأوقات بل جعلوا الورد واحدا لمولاهم، وجعلوا حاجاتهم من الدنيا ضرورتهم، وصيروا الوقت متساويا لسيدهم، وتصريفهم لمصالحهم يدخل عليهم، فوضعوا رقابهم فى رق العبودية، وصفّوا أقدامهم فى مصاف الخدمة، فكانوافى كل وقت بحكم ما يستعملون وبوصف ما به يطالبون. ذلك وردهم وتلك علامتهم عن حُسن اختيار اللّه عز وجل لهم، وجميل توليه إياهم، لايَكِلهُم إلى نفوسهم ولا يوليهم بعضهم، وهو يتولى الصالحين. مشاهدتهم ذكرهم، وقرب الحبيب حبهم، ليس يشهدون فضيلة فى غير محبوبهم، ولا يرجون قربه بغير معروفهم به، يتقربون إليه، وإليه به، يسبحون له، وعليه يتوكلون، له ومنه يخافون عنه، وإياه يحبون منه، لو أسقطوا الأعمال كلها غير ما تعلق بالتوحيد ثبوته ما نقص من توحيدهم ذرة، ولو تركوا أوراد المريدين كلهم ما أثر فى قلوبهم بقسوة ولا فترة لأنهم لا يزيدون بالأعمال فينقصون بها، ولا يتفقدون قلوبهم وأحوالهم بالأوراد فيعرفون النقصان والمزيد منها، ولا تجتمع قلوبهم بسبب ولا تقوى نفوسهم بطلب فتتشتت لفقد سبب، ويضعف يقينهم لطلب. هذه المعانى هى أحوال المريدين، وجملة تغييرهم في شيئين، ضيقهم بالخالق فهربوا منه، واتساعهم بالخَلْق فاستراحوا إليه، ولودام قربهم منه لدامت راحتهم به، ولو وقفت شهادتهم عليه لما نظروا إلى سواه. وأمّا العارفون فقد فرغ لهم من قلوبهم واجتمعت المتفرقات بمجامعها لهم، وأقامهم القائم لهم بشهادتهم له، فلهم بكل شئ مزيد، ومن كل شئ توحيد. كل خاطر بهم يردهم إليه، وكل منظور إليه يدلّهم عليه، وكل نظرة وحركة طريق لهم إليه، فتوحيدهم فى مزيد، ويقينهم في تجديد، بغير تغيير ولا تصريد، ولا إيقاف ولا تحديد. ولربما طلب أحدهم التسبب بالأسباب فيجمعه بها رب الأرباب لأنه مراد بالاجتماع، وإنما استروح بالشتات لاستجمام ما هو فى قلبه آت، ثقةً منه بحبيبه وتمكناً عند محبوبه، إذ قد علم أنه طالب فطرح نفسه ليحمله، فحمله بما تولاه ولم يكله إلى نفسه وهواه. فهذه مقامات لأهلها لا يعرفها سواهم، ولا تصلح إلاّ لهم، ولا تليق إلا بهم، ولا يقاس عليها ولا يدعى مكانها، ولا تنتظر فتترك لها الأوراد، ولا تتوقع فيقصر لأجلها فى الاجتهاد. والمرادون بها محمولون بها، مواجهون بعلمها، مسلوك بهم طريقها، مزيدون زادها، وهى محبوسة عليهم مقصورة لهم، فهم لها سابقون، فأولياء الله عابدوه وقد عكفوا بقلوبهم لمن عبدوه، ونظروا إلى معبودهم الذى عكفوا عليه ففهموا عنه فصل الخطاب بما آتاهم من شهادة، حكمُه حكُم الكتاب إذ يقول وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً بعد قوله للغافلين، فصيرّهم معرضاً نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، مع قوله أنْ امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشئ يراد، إلى قوله فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا، فعلموا أن الأخلاص الذى أُمروا به هو العبادة، ولا عبادة إلا بمجانبة الهوى، وبعدها الإنابة إلى

المولى. أما سمعت قوله عز وجل والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى. وأيقنوا أن الصلاة عماد الدين، ولا صلاة إلاّ للمتقين، ولا تقوى إلا بإنابة كما قال تعالى منيبين إليه واتقوه، ثم قال وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين. فهذه عبادة العارفين على سُنّة النبيّين، فإنابتهم مشاهدتهم لمذكورهم، كقوله فى وصف ضدهم كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى، فهم عن كشف من ذكره إذ كانوا بضد وصفهم. وحقيقة ذكرهم نسيانهم لسوى مذكورهم، بمعنى قوله واذكر ربك إذا نسيت، فأخرجهم الذكر له إلى الفرار إليه، كما فهموا عنه إذ يقول لعلكم تذكرون، ففروا إلى الله، فلما هربوا إليه آواهم بقربه، ووهب لهم هداية إلى حبه، ونشر لهم من رحمته، وطواهم فى قبضته، فلم يرهم إلا هُم، ولم يعرفهم سواهم، وقد قال تعالى وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأوُوا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، وقال تعالى إنى ذاهب إلى ربى سيهدين.

ذكر الأوراد وما يرجى بها من الازدياد

ولكن بمواصلة الأوراد المرسومة والأعمال المؤقتة المعلومة يستبين للمريد النقصان من المزيد، ويعرف قوة العزم والشِرّة من وهن العادة والفترة. وفى الأوراد أيضاً فضيلة وهو أن العامل إذا شُغل عنها بمرض أو سفر كَتَبَ له المَلَكُ مثل ثواب ما كان يعمل فى الصحة.

وقد يكون نوم العارف أفضل من صلاة الجاهل، لأن هذا النائم سالم، وهو ذلك الزاهد العالم، إذا استيقظ وَجَد، وهذا الصائم القائم لا يُؤْمَن عليه الآفات وتطرقه الأعداء فى العبادات، وهو ذلك الجاهل المغتر إذا وجد، فقد روينا فى خبر نوم العالم عبادة ونَفَسُه تسبيح. وفى الحديث عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، وروينا فى خبر مقطوع لو وقعت هذه على هذه، يعنى السماء على الأرض، ما ترك العالم علمه لشئ، ولو فتحت الدنيا على عابد تَرَكَ عبادة ربه، ولأنّ العالم قد يُكاشف فى نومه بالآيات والعِبَر، ويُكْشَف له الملكوت الأعلى والأسفل، ويُخاطب بالعلوم، ويُشَاهِد القدرة من معنى ما تشهده الأنبياء فى يقظتهم، فيكون نوم العارف يقظة لأن قلبه حياة، ويكون يقظة الغافل نوماً لأن قلبه موات، فيعدل نوم العالم يقظة الجاهل، وتقرب يقظة الجاهل الغافل من نوم العالم. كيف وقدجاء فى خبر أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم نظر إلى أحُدُ فقال هذا جبل أحُدُ، ولا يعلم خلْقٌ ما وزنه، وإن من أمتى من تكون التسبيحة منه والتهليلة أوزن عند الله عز وجل منه. وفى حديث ابن مسعود إذ قال لعمر ما أنكرت أن يكون عمل عبد فى يوم واحد أثقل مما فى السموات والأرض، ثم وصف ذلك بأنه هو العاقل عن الله عز وجل، الموقن العالم به. وقد سئلت عائشة رضى الله عنها عن صلاة رسول الله صلى اللّ عليه وسلم فى رمضان، فقالت ما كان يخص رمضان بشئ دون غيره، ولا كان

يزيد فى رمضان على سائر السنة شيأ . وقال أنس بن مالك ما كنتَ تريد أن ترى رسول اللّه صلى اللّ عليه وسلم نائماً من الليل إلاّ رأيته، ولا تريد أنْ تراه قائما إلاّ رأيته. وكان رسول اللّه صلى اللّ عليه وسلم ينام، ثم يقوم قدر ما نام، ثم ينام قدر ما قام، ثم يقوم قدر مانام، ثم ينام، ثم يخرج إلى الصلاة. وقالت عائشة رضى اللّه عنها ما صام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شهراً كاملا قط إلاّ رمضان، ولا قام ليلة إلى الصبح حتى ينام منها . وقالت وكان يصوم من الشهر ويفطر، ويقوم من الليل وينام. وفى الخبر الآخر كان يصوم حتى تقول لا يفطر، ويفطر حتى تقول لا يصوم. وكان يصبح صائما ثم يفطر، ويصبح مفطراً ثم يصوم. وفى الخبر الآخر كان يدخل من الضحى فيقول هل عندكم من شئ، فإن قدم إليه شئ أكل وإلاّ قال إنى صائم، وخرج يوما فقال إنى صائم ثم دخل، فقلنا يارسول اللّه أُهدى لنا حَيْس، فقال أما إني كنت أردت الصوم ولكن قربيه. وكان ورده صلى اللّه عليه وسلم حُكْمَ ما ورد عليه، فعن هذا المعدن يكون تصريف العارفين، ومن هذا المعنى تكون مشاهدة الموقنين، ليسوا مع اللّه بإيراد توقيت ولا بقطع على تحديد، كما قيل لبعضهم بأى شئ عرفت اللّه عز وجل، فقال بفسخ العزائم وحَل العُقَد. ولكن الأوراد طريق العمّال، والوَظَف أحوال العبّاد، منها دخلوا، وفيها يرفعون إلى أن يشهدوا الواحد، فتكون الأوراد كلها وردا واحدا، أو يكونون بشهادتهم قائمين . وقال بعض العلماء من السلف الإيمان ثلاثمائة خلُق وثلاثة عشر، على أعداد الأنبياء المرسلين، كل مؤمن على خلُق منها، هو طريقه إلى اللّه عز وجل، ووجهته من اللّه عز وجل ونصيبه، وفى كل طريقة من المؤمنين طبقة، وبعضهم أعلى مقاما من بعض. وقال عالم آخر الطريق إلى اللّه عز وجل بعدد المؤمنين. وقال بعض العارفين الطرق إلى اللّه بعدد الخليقة، يعنى أن للشهيد بكل خلْق طريقا فقد صارت المكونات للمكون طرقات.

وروينافى الخبر الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون طريقة، من لقى اللّه عز وجل بالشهادة على طريقة منها دخل الجنة. ومن هذا قوله عز وجل قل كلٌ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا، فدّل أنهم كلهم مهتدون، وبعضهم أهدى من بعض، بمعنى أنه أقرب إلى اللّه عز وجل وأفضل، وقد ندب إلى القُرب فى الأمر بطلبه، وأخبر عن المقربين بالمنافسة فى طلب القرب، فقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وابتغوا إليه الوسيلة، يعنى القُرب. وقال تعالى فيما أخبر أولئك الذين يدْعُون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، فتقرب الخلق من اللّه عز وجل أعلاهم عند اللّه عز وجل، وأعلاهم عنده أعرفهم به وأفضلهم لديه. وروينافى التفسير قل كلٌ يعمل على شاكلته، قال على وحدانيته، يعنى بذلك على توحيده الذى يوّحد اللّه عز وجل به

ويعرفه منه. والشاكلة الطريقة والخُلُق، قد شاكله وقد شكل فيه، ومن ذلك قول عليّ رضى الله عنه لكل مؤمن سيد من عمله، فهذا السيد من العمل هو الذى يرجو به المؤمن النجاة ويفضل به عند مولاه.

وقال بعض العلماء كان عبّاد الكوفة أربعة، أحدهم صاحب ليل ولم يكن صاحب نهار، والآخر صاحب نهار ولم يكن صاحب ليل، وبعضهم صاحب سر ولم يكن صاحب علانية، والآخر صاحب علانية ولم يكن صاحب سر. وقد كان بعضهم يفضل عبادة النهار على عبادة الليل لما فيها من مجاهدة النفس وكفّ الجوارح، لأن النهار مكان حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين، فإذا سكن العبد عند حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين كان هو التقى المجاهد والفاضل العابد . وقد قيل إن العبادة ليست الصوم والصلاة فحسب، بل أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم وتقوى الله عز وجل عند اكتساب الدرهم، وهذا من أعمال النهار، وقد قال الله عزّ وجلّ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، أى ما كسبت جوارحكم، فعلّق الاجتراح بالنهار، ثم يبعثكم فيه، فإذا لم يعلم من عبد اجتراحاً بالنهار ولم يبعثه فيه فى مخالفة، فمَنْ أفضل منه؟ وكان الحسن يقول أشد الأعمال قيام الليل بالمداومة على ذلك، ومداومة الأوردة من أخلاق المؤمنين وطرائق العابدين، وهى مزيد الإيمان وعلامة الإيقان. وسئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديمة، وكان إذا عمل عملاً أتقنه. وهذا كان سبب ما نقل عنه صلى الله عليه وسلم من صلاته بعد العصر ركعتين أنه كان ترك مرة ركعتى النافلة بعد الظهر، شغله الوفد عن ذلك فصلاّهما بعد العصر، ثم لم يزل يصليهما بعد العصر كلما دخل منزله، روت ذلك عنه عائشة وأم سلمة، ولم يكن يصليهما فى المسجد لئلا يستن الناس به، وفى الخبر المشهور أكلفوا من الأعمال ما تُطيقون فإن الله عز وجل لا يَمَلّ حتى تملّوا، وفى الحديث الآخر أحب الأعمال إلى الله عز وجل ما ديم عليه وإنْ قل. وقدر روينا فى خبر من عوّده الله عز وجل عبادة فتركها ملالةً مَقَته الله تعالى. وفى خبر عائشة رضى الله عنها وقد أسنده بعض الرواة من طريق: كل يوم لا ازداد فيه علماً فلا بورك لى فى صباح ذلك اليوم. وقد جاء فى الخبر كلامٌ تارة يُروى عن الحسن بن علىّ، وتارة يُروى عن الحسن البصرى، ومرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سُمِعَ يقول من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن فى مزيد فهو فى النقصان، وفى لفظ آخر من لم يتفقد النقصان من نفسه فهو فى نقصان، فالموت خيرٌ له. ولعمرى إن المؤمن شكور، والشاكر على مزيد.